فقه الحب

يوسف زيدان

الرواق للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف كريم آدم

فقه الحب

الحبُّ متوحِّدٌ بأحواله. لا يدور إلا حول محوره، ولا حُكم فيه لمحبٍّ على محبوب. أما العشقُ فجوهرُهُ الاشتراك، والاشتباك، والانهماك، وتلاشي العاشق في المعشوق.. والذوبان التام، إلى درجة انعدام الأنا والهو.

الحبُّ بلا شرط. أما العشقُ فمن شروطه القربُ، والوصالُ، واتصالُ انهمار المطر على الورود التي تفتّحت، حتى تمتلئ من ماء المورد وتغيض.. فإذا سُقيت الجذورُ، أينعت أنواعُ الزهور.

الحبُّ حيواتٌ تتتالى، وأحوالٌ تتحوّلُ دومًا. وإن لم يتجدّد، تبدّد. وإن لم يتطوّر تحجّر، وعجزت أجنحته عن التحليق. فيصير فينا كصخرةٍ ترسَخُ فوق القلب، فتؤلمه.

للنشر والتوزيع

فقه الحب

يوسف زيدان

■ الطبعة الأولى (نوفمبر 2015)

الغلاف: كريم آدم

خط العنوان: أحمد الكردي

رقم الإيداع: 2015/22268

الترقيم الدولي: 5-71-5153-977-978

للنشر والتوزيع

3 شارع إدريس – أول شارع الوحدة – إمبابة – الجيزة

هاتف وفاكس: 33100951 (202)

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

فِقه الحُب

يوسف زيدان

الرواق للنشر والتوزيع

إهداءٌ خاص:

إلى الخافقة قُلوبُهم عشقاً، وقلقاً.. وإلى المحبين، أولئك المُحلّقين، الحيرانين، الذين هم وحدهم الأحياء في أزمنة الفوات والممات.

مفتتح

كلّما احتدمتْ الأحوالُ واحتدّتْ من حولنا، ولحق بأرواحنا النحولُ حتى حُرمنا مما نحيا به، وله.. اشتد احتياجُنا إلى الحب.. إلى طوقِ النجاة.

أرسلت تسـألني: من أين ينبع العشق؟ قلتُ: هو مسٌّ سماويٌّ، سحريٌّ، يأتينا أحياناً من خارج الكون.

في نفوسـنا جميعـاً، بقعـةٌ مُعتمة. تعوقُ الإحســاس بالجمال، والشغف بالفن، والحنين إلى الحب.. فتحرمنا مما يجعل الإنسان إنساناً.

حيـن يحتدمُ الحـبُّ، قد تثـورُ النفسُ أحياناً مُتشبّثةً بالرغبة الغبية فى البقاء، ومُحاولةً حفظ ذاتها من الذوبان فـى المطلـوب. فإن غلبت هـذه الرغبـةُ ونجحت تلك المحاولـةُ، تبخّر الحبُّ وصار كهبـاءٍ منثورٍ، أو ذكرى.. لأنه لا حُبَّ، إلا بالفناء التام فى المحبوب.

لولا الحبُّ وأوهامُه، لحَارتِ الأفهامُ في صحراء الحقيقة الجرداء.. ولولا الأحلامُ المستحيلةُ، لانتحر المحرومُ أو احترقتْ روحُهُ.

بالحب، نرى المرأةَ كوناً فسيحاً، ليس له آخرٌ ولا له أول.. وندرك أن الجوهر الأنثوي، دائريٌّ.. دوّارٌ.

شَرْطُ الحُبِّ، ألّا يكون بشَرْطِ شيء.

الحبُّ أولُ درجـات الإدراك، وآخرُ أطوار المعرفة..
وليس فوقه إلا العشق.

وأمّا العشقُ، فهو الرُّحى الطاحنةُ للأرواح المحترقة.. المتحرقة.. المحلّقة بدُخَانها.

الحبُّ جَنَاحُ الحرية، وهو فَضَاؤها الفسيح.. لجنوحه دوماً نحو الخيال.

حين يحتدم الحبُّ في قلبٍ يُقلّبه بلا مقدماتٍ، وبلا تمهيد، بين اليقين الذي ما بعده يقين، والشكوك المليئة بالأشواك. وفَرح الروح، وتَرح النحيب. والهُيام في سماواتٍ أعلى من كلِّ سماء، والتنهُّدات التي لا يعرفها إلا العُشاقُ.

منكرو الحب يزعقون، لأنهم محرومون، والمحظوظون به ممسوسون.. يتهامسون.

إذا احتجب المحبوبُ حيناً غابت لوازمُه: الابتسـامةُ المنيـرةُ للكون كلـه.. والإيناس بالانزواء عـن الناس.. والإحسـاسُ بأن الوجود جمالٌ، لا يشوبه قبحٌ، واكتمالٌ لا نقص معه.

دلّت الشـواهدُ على أن نقيـض الحبِّ ليس الكراهية، فكلاهما وجهٌ لعملةٍ واحدةٍ هي العاطفة.. نقيضُ الحبِّ، عدمُ الاكتراث.

لا يعرف المُحبُّ قيمة المحبوب، إلا حين يفقده.

فـي الأمـل سـلوانٌ للمسـكين، وفـي الحـبِّ عـزاءٌ للمحروم، وفي التخيُّل الخفيِّ ارتياحٌ للمُستباح.

إذا فصل المُحبُّ بين الحبِّ والمحبوب، فقد ضلَّ سعيه وضيّع السرَّ المبهر، فصار من الخاسرين.

الإنسانُ جامعٌ للمتعارضات جميعها، وفيه المراتب كلها، كامنة: السمو والسفالة، الملائكية والشيطنة، النُّبل والحقارة، الأثرة والإيثار. ولهذا قيل إنه الكون الجامع للأمر كله. ولا ارتقاء له في تلك المراتب، إلا بالحب.

في الحبِّ حُزنٌ وفَرح، بهجةٌ وأسى، ألمٌ وأمل. يعني، فيـه حركةُ الحيـاة وكل أحوالها. يعني، في غيابِه سـكونُ غَيابة الموات.

سـوف يظـلُّ الحبُّ فـي الحيـاة، علامةً عليهـا. فإن اختفى، اختفت.

الحبُّ أكثرُ أحوالنا سحريةً وجموحًا.

الحبُّ بريءٌ، لا ذنب له ولا إثم فيه. و أما العشق فهو لا يعترف أصلاً بآثامٍ، ولا يعتقد بوجود أو وجوب ذنوب.

لا حُـبَّ إلا بشـاهد الاشـتياق، ولا عشـقَ إلا ومعـه المعاناة عند الافتراق. حتى لو كان افتراقاً إلى حين.

نظرةُ العشقِ حين تصدُق، تُخرس اللسان.

حيـن يحتـدمُ فينـا الحبُّ نلجأ للسـماء، لأننـا آنذاك نحتـاجُ المـدى اللانهائـي.. الـلا ملموس.. مُسـتحيل الوصول، فهو الذي يؤنسـنا ويؤكّد لنا مشاركة الكون لما نحنُ فيه.

الحبُّ فتوحٌ، بلا حروب.

مَن يُشرِعُ جناحيه مُحلّقًا في أُفُقِ العشـق، لا يجوز له الأمـل في الوصول. فلا وصول، ولا أمل، إلا الفناء التام عن ذات العاشق، وبقاؤه فقط في حَرَم المحبوب

لا يزيحُ عـن الروح الحُبَّ، إلا حبٌّ أرقى.. وأقوى.. وأعمق في القلب توغلًا.

حِضـنُ الحبية وطـنٌ. وعيناها سـماواتٌ بعيدةٌ تعلو هـذي السـماء، وتسـمو فوقها. وأطـرافُ أناملهـا طوقُ النجاةِ الوحيدِ، العاصم من الغرق فيها.. لأن كلَّ محبوبٍ كونٌ كامل، لا نقصانَ فيه ولا زيادة عليه.

حيـن رأى المعتقدات تعـوق الأرواح عـن التحليق الحر، قال الشيخُ الأكبر: أدينُ بدين الحب..

يحتـاجُ الحـبُّ، ويمـرحُ فـي فضاءاتـه الفسـيحة.. المحبُّ، لا المحبوب.

للحبِّ خَلوةٌ بداخلها جَلوةٌ، وصَبوةٌ تصحبُها صَحوةٌ، ومِحنةٌ معها مِنحةٌ.. وصفاءٌ فوقه صفاءٌ وتحته صفاء.

الحبُّ انتباهٌ من بعد طول انشغالنا، عنا. وهو نوالٌ من منهلٍ طال حرماننا لأنفسنا، منه. ولن يناله إلا الصادقون.

لا حلَّ لأحوال المحبـة، مهما احتدمتْ. لأن الداءَ به دواءُ. ولا يصحُّ الصبرُ مع العشق، مهما استقوى العاشقُ، لأن البُشـرى تكون للمتوهِّجين بـه والصابرين فيه وليس للصابرين عليه.

النوالُ لا يُهدّئ العشق، ولا يُطفئ لهيبه، بل يُهيّجه في القلب ويؤجّج من جديد ناره.

لا يخلو الحبُّ من قلقٍ، ومن غرقٍ، ومن توقٍ للمزيد، ومن احتدامٍ يهتاجُ أحيانًا بلا موعدٍ أو مناسبة.

الحبُّ حالةٌ واحدةٌ، مُفردةٌ بذاتها، لا تتعلّقُ بما سبقها وبمـا قد يأتي بعدهـا. وكلُّ ما يُقالُ عن حـبٍّ أولٍ وآخر أخير، هو حديث خرافة.

للراء مع الحبّ سرٌّ مستترٌ! فلا حبّ إلا وفيه: رحمةٌ.. رقّةٌ.. رُقيٌّ.. رأفةٌ.. رغبةٌ.. رجفةٌ.. رعشةُ نوال.

العشـقُ اكتمـالُ الحبّ وإتمامـه، إن سـمح الزمانُ بالوصـال. فكلُّ عاشـقٍ مُحبٌّ، وليس العكس.. الحبُّ آمال، والعشـقُ الوصال. الحـبُّ هوى العابر، والعشـق مداومة المُثابر. الحبُّ ابتداءُ الحال، والعشقُ حلمُ الفاني بالدوام.. العشقُ طلبُ الخلود، وتوحيد المعبود، والفوز بالكنز الموعود المرصود خلف الباب الموصود.

الحبُ لحظةٌ تمرُّ علينا مثل لمحةٍ سريعةٍ مُبهرةٍ للنظر، مهمـا امتدّ زمانُنا فيه. فإن انقضـى حالُه ومرّ، أبطأ الوقتُ مُجدّدًا وأظلمت من حولنا الأنحاءُ.. وسـاعتها نستشـعر مـرارة الفوات ونُـدرك ونحن المُتحسّـرين، أن السـبيل الوحيد لإدراك حلاوة العسل هو تذوُّقه

النَّاسُ نوعانِ لا ثالثَ لهما: بشـرٌ يَعشِقون ويُعشَقون، وأشباهُ بشر.

الحبُّ للمحرومِ من بهجاتِ الحياة، عزاءٌ. وللمحزونِ مواساةٌ. وللمفقودِ وجودٌ. ولليائسِ، هو المَدى الممدودُ بالأمل في المستحيلِ الأتمِّ: الذوبانِ التامِّ في المحبوب.

لا دواءَ للنزعـة التدميريـة الدفينة في نفـوس الناس، إلا شيئان: الحبُّ، والمعرفةُ.. وأما البلسمُ الشافي، فهو محبةُ العارفين.

لولا المحبّةُ، والعشـقُ، لما عرف البشرُ رحمةً أو أُلفةً أو شغفًا باللا محدود أو إطلاقَ الخيال بلا حدود. ولولا المحبّةُ والعشقُ، ما كانت المعرفةُ.

للحبِّ أسبابٌ، أقلُّها وأبسطها هو العلنيُّ المفهومُ الذي يمكن التعبير عنه. أما أعمقها وأكثرها وفرةً واستيلاء على الروح، فهو الخفيُّ.. الشفيفُ.. بعيدُ الغور.. صعبُ الإدراك حتى على المُحبّين الذين يعصفُ بهم الهوى، بينما هم غافلون عن أسبابه الغامضة وعن سرِّ امتلائهم به.

حِضنُ الحبيبةِ، وطنٌ سوف يُسلب من المحضون بعد حين.

الحبُّ وحيٌّ سماويٌّ خاصٌّ، لا ينعكس إلا على مرايا القلوب المجلوّة، المنيرة. أما اسوداد القلوب، والإعتامُ والإظلامُ، فهي موانعه المُعمية عنه، المؤدية للحرمان منه.

إذا احتدمَ فينا الحبُّ، همسَ بأنحاء أرواحنا هسيسُ أحاسيس لا تحدّها اللغةُ، ولا تقدر المفرداتُ على الإحاطة بها.. فيكونُ صمتٌ.. وتكونُ خشيةُ الفوت.. ونكونُ نحنُ.

عند اجتيــاح الحقارة نفوس النــاس، لا يكون الحبُّ ترفًا.. وإنما يصيرُ طوقَ نجاةٍ، ومُرساةً، وأملًا أخيرًا يحدو بنا للخروج من العين الحمئة إلى روضات الجنّات.

ومن عجائبـه، أن المحبـوبَ يغيبُ دهرًا. ثم يرسـلُ إشــارةً خفيةً عــن الأفهام، فكأن لا دهــر انقضى ولا وقع غيابُ.

ومن عجائبه أن المحبوب، أيًا ما كان حالُه، هو دوماً الأبهى جمالًا.. والأشهى كلامًا.. والأقربُ من كلِّ قريب.

ومن عجائبه، استعذابُ العذاب.. واستعطافُ العطوف.. واسترضاءُ الراضي.. والاستزادةُ مما يزيد عن احتمال المُحبّ.

ومن عجائبـه، أن ظمأه لا ارتـواءَ له.. ونوالـه وَلَعٌ.. واقترابـه يهدِّد بالابتعاد! فكأن كل أحواله معكوسـة، ولا حدود لها.. ولا مُنتهى.

ومن عجائبه، أن الحاضن والمحضون.. يطمئنانِ.

سـأل: ما الـذي يُذهـب الحـبَّ ويُهـدره؟ فأجبتُ: الحمـقُ.. حمقُ المحـبِّ، أو المحبـوب، أو المحيطين بهما.

سـأل: هل الحبُّ دينٌ في حد ذاتـه؟ فأجبته: هو يعلو على المعتقدات، وهو الذي يُوصل ما تقطعه.

سـأل: هل يتصل الحبُّ الأرضي بالحبِّ السماوي؟
فأجبـتُ: لا ينفصـلان. وفي حقيقة الحـال، فالحبُّ كلّه سـماويٌّ. لأنـه يرفع المحبـوب للسـقف الأعلى. وكل ما أظلّك وعلاك، فهو سماؤك.

ومن أصول العشـق: مَن ظنَّ يومًا أنه وَصَلَ أو اكتفى، فقد كَفَرَ بالمعشوق.

سـأل: ألا يقيّد الحبُّ الرجال؟ فأجبتُ: يقيّد الحيوان الذي فيهم، فقط، ويُطلق العنان للإنسان.

سأل: هل ذقتَ هذا الحب الذي تكتب عنه؟ فأجبتُ: أتذوّقه طيلة الوقت، فإن فقدتُه لحظةً استدعيتُه من خزانة الذكريات.

من أصول العشق: مَن لم يتّصل، لن يَصِل.

لأنهم سادةُ الناس و ملوكُهم غير المتوّجين، فالعشاقُ يسيرون هوناً و سلاماً فوق سماء السقف الأعلى.

استجلابُ المحبوب لبدء الصلة، يسير. العسير هو استبقاؤه واستدامة التواصل.

في الحبِّ حكمةٌ بالغة، وفيه الجنونُ المطبق. فيه الرضا بأقل قليلٍ من المحبوب، والطموحُ إلى المستحيل منه. والمستحيل عليه، والمستحيل معه. فيه التحرُّقُ إلى وقت اللقاء، وفقدانُ الشعور بالوقت عند الوصال..

المحبُّون زائلون؛ لأنهم مادةٌ فانية. أما الحبُّ ذاته فهو سرمدي الدوام لأنه لا مادي.

للحبِّ أسماءٌ كثيرة، ومراتب: المودّة، الإعجاب، الهوى، العشق، الهُيام، الصبابة.. لكن أسماءه كلها، لا تُحيط به ولا تعبّر بدقةٍ عن مراتبه.

الحبُّ مُحيِّرٌ، لأنه جامعُ الأضداد.

فـي الحـبِّ مـن الأمومـةِ، المنحُ بـلا حـدود. ومن الأبـوّةِ، الروحُ الراعيةُ السـاريةُ بلا شـرط. ومن الأخوّةِ، الأنـسُ وطمأنينـةُ صلـةٍ بـلا انقطـاع. ومـن الصداقـةِ، الصحبةُ المبهجةُ والمشـاغبةُ بلا غلظة.. ومن الإنسانية، معناها التامّ.

الحبُّ ابتداؤه شغفٌ، وأواسطُه اشتهاءٌ لا يُنهيه ارتواءٌ، وغاياتُه اشتياقٌ إلى رجفاتِ البدايات.

في النفس الإنسانية سماواتٌ وأراضٍ، كلاهما طبقاتٌ بعضها فوق بعض.. وسقفُ السماء الإنسانية الأعلى، لا وصول له إلا بالتحليق الحر بأجنحة الحب.

مهمـا قال أو اجتهد فـي التكذيب والإنـكار والنفي، سـيبقى هذا الكافرُ بالحبِّ، بعد مـا عاينه وعانى منه، هو أكثر الناس إيمانًا به.. وتحسُّـرًا علـى فواته.. وحنينًا إلى سابق أحواله.

مهما قيل سـابقاً، سيقال عن الحب والعشق في مقبل الأيام، أكثر. لأن البشرية لم تزل تحبو نحو أوج نضوجها.

سـألت: كيف يتسق الحبُّ مع كونه من طرف واحد؟ فأجبـتُ: الحـبُّ قد يتسـق مع الحرمـان، فيجلـبُ إلينا عواصف المعاناة. لكنه مع ذلك يظلُّ حبًا.

سـألت: هل للحبِّ يـوم عيد؟ فأجبتُ: أيـام المحبة أعيادٌ متصلة.. وبهجتها في الوصال بعد حرمان.

سألت: «الاعتراف سيد الأدلة» هل لهذه العبارة موقع في فقه الحبِّ؟ فأجبتُ: الاعتراف يريح المحب، وقد يُحيِّر المحبوب.. وقد يسعده.. وقد يُشقيه.

الحبُّ إعصارٌ كامنٌ في زاويةٍ بعيدةٍ، بأعماق القلب.. إعصارٌ يتوق دومًا لاجتياح كل ما يعترض طريقه.

فقط، في العشـق، تنقلـبُ الموازين فيكـونُ الالتذاذ بالانهـزام.. والازديـادُ بالبـذل.. والإمتـاعُ بالالتيـاع.. والفورانُ المهتاجُ من نظرةٍ هادئة.

الحبُّ إعلانُ توبةٍ مما سبق، ومما سيأتي.

الحبُّ طرفةُ عين، بعدها وهجٌ أفخّاذ.

الحبُّ متوحّدٌ بأحوالـه. لا يدور إلا حـول محوره، ولا حُكم فيه لمحبٍّ على محبوب. أما العشـقُ فجوهرُهُ الاشتراك، والاشـتباك، والانهماك، وتلاشي العاشق في المعشوق.. والذوبان التام، إلى درجة انعدام الأنا والهو.

الحبُّ، بلا شـرط. أما العشـقُ فمن شـروطه القربُ، والوصـالُ، واتصـالُ انهمـار المطـر على الـورود التي تفتّحـت، حتـى تمتلئ من مـاء المـورد وتفيـض.. فإذا سُقيت الجذورُ، أينعت أنواعُ الزهور.

وقودُ الحب عند الحرمان، الاحلام.

فـي دروب الحب وصحراوته، يكـون المحبوبُ هو السـفرُ. وهو المستراحُ. هو السـعيُ المقدّسُ للمحبّ ما بين صفاه ومروته، ما بيـن ابتدائه والمنتهى. لأنه اجتماع آماله، وسـرُّ كل أحواله، وروحُ المعنى الساري في فعاله وأقواله. وما سوى ذلك، ليس حبًّا.

لا شـيء يجلو مرآة أرواحنا، فيجعلنا نرى ذواتنا على نحوٍ شديد السطوع والألق.. إلا الحبُّ.

الحبُّ، كتابُ الكون مقروءًا.. وسـرُّ الحياة معلومًا.. ورحيقُ الروح فوّاحًا..

قد يعلو الحبُّ بالمحبوب، وقد يعلو عنه. وقد يسمو فوق الصواب والخطأ، وفوق الواجب والمحظور، وفوق المنظور والمحتجب.. فالحبُّ جوهرُهُ العُلو والسمو.

لا يخلو الحبُّ من حيرة، لأن جمال المحبوب فوق الحدّ المُحتمل، المفهوم.

الحبُّ نهرٌ مُتدفقٌ جريانُه. على ضفافه مَن يحسو حتى يبلّ الرمق، فيقدرُ على هجير الحياة. ومَن يشربُ حتى ثُمالة كأسه، فيحمله سحابُ اللحظات إلى الأفق الأعلى. ومَن يخافُ الاقتراب منه، فيقتله الجفافُ وفُقدان المعنى.

لمّا سألتني بالأمس إن كان الاشتهاء مرتبطٌ بالحبّ، أجبتها بأنه مرتبطٌ بالإنسان. ولمّا تأملتُ الأمر اليوم، وأعدتُ النظر، رأيتُ أن معنى الإنسانية لا يتحقّق إلا بالحبّ الذي به يتحقّق المعنى العميق للاشتهاء الذي لا يعرف الارتواء.. وهذا سرُّ التحوُّل من الحب إلى العشق.

كلُّ غـالٍ يُزيّـف. وكلُّ نادرٍ يُنسـخ. وكلُّ قيّـمٍ يُقلّد..
والحبُّ من أغلى وأندر وأقيم المعاني، إن لم يكنْ أغلاها
وأندرها وأقيمها على الإطلاق. ولهذا وجب الحذر.

الحـبُّ قوتُ الفقيـر، وفاكهةُ الغنـي، وتبصيرُ الغبي،
وتليينُ القاسي.. وهو تذكيرُ الناسي بأنه إنسان.

الحبُّ روحُ الابتداء، وسرُّ الاحتفاء بالحياة، وسببُ الاستغناء عما سوى المحبوب.. وهو توحيدُ المطلوب، وتجريدُ الهمّة، وتغريدُ نبض القلب.

العشّاقُ عبيدُ عشقهم ، وهم السادةُ بين غيرهم.

طريقُ الحبِّ السماوي لا يبدأ إلا بالعشق الأرضي. فإن انتقل القلبُ إلى الأفق الأعلى، صار صافياً من مُكدّرات الحال في زمن البدء، وساعتها يتسامى عن مشوّشات الحب: الغيرة، الأنانية، وَهْم الامتلاك.. ومثل ذلك من أحوال الكائنات الزاحفة، لا الصقور المحلّقة في السماوات العُلى.

الحــبُّ نورٌ نرى به الجمال مُتجليًـا فيما حولنا، مهما كان ما حولنا.

الحــبُّ انقداحُ الشـرر الـذي لا يطول لمعانـه، مهما بلغ شـأنه قـوةً وعمقًـا. وهو زخَّـات المطـر، أو إطلالة فجـرٍ منتظر ربما لا يدوم. غير أن شـرارته تُضيء العتمة، وحبات مطـره تُحيـي الأرض اليباب، ونور فجـره يُبدّدُ وحشة الليل الطويل.

لا يعصفُ الاشـتياقُ الحقيقيُّ بالمحبِّ، حتى يمتلئ قلبُه فراغًا. فإذا نظر لمحبوبه ولو بلمحةٍ خاطفة، وجد أن عينيه جنتان.. والقطوفُ دانية.

للوصال العشـقي أشـكالٌ لا حصر لها، منها التوغل في الفكر إلى حَدّ الملامسـة.. والرسالةُ القصيرةُ عظيمةُ الخطـر.. والنظرةُ المتوهّجةُ باهتياج الشـرر.. واللمسـةُ المرتعشـةُ برعدة الاشـتياق.. والخمودُ الهنـيُّ بين نوالٍ ونوالٍ تالٍ.

أحيانًا يحتار المحبُّ فـي أحواله حتى تحتدم حيرتُه، ثم يُدرك في لحظة إشـراقٍ قلبي أنه لا دواء له من الحب، إلا بالاحتراق حبًا.

قد ينقمُ المحبُّ على المحبوب، فيؤلمه. فإن لم يتألم معه، فلا هو مُحبٌّ، ولا محبوبه محبوبٌ.

الحبُّ حيـواتٌ تتتالى، وأحوالٌ تتحوّلُ دومًا. وإن لم يتجدّد، تبدّد. وإن لم يتطوّر تحجّر، وعجزت أجنحته عن التحليق. فيصير فينا كصخرةٍ ترسُخُ فوق القلب، فتؤلمه.

للحبِّ نغماتٌ قلبيةٌ يسـمعها الأصـمُّ، وألوانٌ مبهجةٌ يُميّزها الأعمى، وارتقاءاتٌ علويةٌ ترفع الوضيع. وتُهذّب الحقيـر. فما بالك بأفعاله في الأصحـاء من الناس، وفي الأسوياء منهم.

الحبُّ بذورٌ كامنةٌ في حنايا الروح. إذا ارتوت بقطراتٍ من الرعاية تورق، فإن دام الاهتمامُ تُثمر، فإن امتدّ الزمانُ ترسخ جذورها وتتفرع في السماء أغصانها، فتكون أرضها روضات الجنات.. وإذا لحقها الحرمانُ وعزَّ نزول المطر، تيبسُ. وعندئذٍ نعبسُ، ثم نتعسُ، ثم نيأسُ، ثم نكون أرضًا جرداء لا غناء فيها ولا لها رُواء.

لولا الحبُّ والعشـقُ، لانعدمت القيمُ العليا الثلاثُ، التى تجعلُ من الإنسان إنسانًا.. فالجمالُ لا يُرى إلا بعين عاشـقٍ، ولا يـراه الكارهون.. والحـقُّ لا يتضح إلا حين نُحبُّ الحياة، فنحتفي بما يحفظها.. والخيرُ لا يفعله ولا يتمنّاه، إلا الذين تفيض قلوبُهم محبةً.

لا يُقاس العشقُ بوقتِ دوامه، أو استطالة المُدة، وإنما بعمق النقش الذي يُحدثه في أرواحنا.

مـا كاد مولانـا جلال الديـن يلقى للقلـوب الجوعى ببعض الفتات، حتى اسـتدرك واسـتعفى فقـال: إن الدم ليتفجّر من قلبي مع الكلمات.

علـى كل الذين تجـاوزوا الحالة الحيوانيـة إلى آفاق الإنسـانية، إناثًـا كانوا أم ذكـورًا، أن يحـذروا قبل فوات الأوان مـن الوقـوع في أتعس المآسـي: عشـقِ شـريكٍ رخيصٍ.

أحوالُ العشقِ أهوالٌ، كلُّها.. نقتربُ فنلتهبُ، ونبتعدُ فنرتعدُ، وننقطعُ فتهترئ خيوطٌ كانت تربطنا بالحياة التي لم تعُد تُحتمل.

لا يصحُّ العشقُ العميقُ، إلا باشتماله على المُتقابلات. الأمومة، والطفولية. الإحاطة بالكون، والاختباء في الحِضن. بلوغ سماء المُنى، والغرق في بحر الحَسَرات. القوّة القصوى، والاضمحلال التام.

اللسعةُ في العشق عند الاقتراب، حارقةٌ. فما بالُ نيرانه، إذا أُلقي فيها العاشق وهي تلتهبُ.

لا يصحّ الحُبُّ إلا مع التضحية، ولا يكون أبدًا مع الابتذال.

مهما احتدمَ الحـالُ ما بين المُتحابيـنِ، والتهبَ، فإن الفِراق محتومٌ لا محالة.. ولولا ذلك، لما اشـتهى البشر الجنة.

مـع المحبوب نفعـلُ ما لم نألف، ونـدُرك ما لم نكن نفهم. ونحلم، كأننا يومًا لن نندم.

الحبُّ ورودٌ فوّاحةٌ على ما حولها، ورياحين. وحين يعمى أحدٌ عن رؤيتها، ولا يتنسّم رائحتها المحيية للنفوس، فالواجبُ المبادرة إلى مداواته بدلًا من لوم الورود والرياحين.

للحب قانون قائم بذاته، و العشق لا قوانين فيه

جوهرةُ الحب هي الأغلى. مع أنها لا تُباع، ولا يمكن شـراؤها. وإنما تقع عليها عيـنُ القلب، إذا نوافذه فُتحت فدخل ضـوءُ الشـمس، والنقيُّ مـن الهـواء المُميل إلى الهوى.

العشقُ عند انعدام الوصال، قتّال.

الحنينُ إلى حالة الجنين، والهدأةُ في حضن الحبيب.
نتجت عنهما، التصوراتُ المبكرة للفردوس والجنة.

المُحبُّ مغلوبٌ للمحبوب دومًا، ومنتصرٌ به.

حين يُحرم المحبُّ من محبوبه، يحقُّ له البوح بالسرِّ المستور، فيعترف: لا شيء يؤلمني، الآن، سواي.

الحـبُّ جموحٌ لا يعرف التـوازُن.. ولا الاتّزان.. ولا الموازنات.. ولا الموزون من الحسـابات. ولا أي معنى مشتق من جذر: وزن.

إن تحاشـينا الحبَّ بحجّة أننا لن نحتمل آلامه، صرنا كالموتى الذين يُزيدون موتهم مواتاً.

الحبُّ مِلحٌ روحيٌّ، والعشقُ سُكَّرٌ جسدي.. والمرتجفُ العازف عن التذوق، لا سبيلَ أمامه إليهما.. ولا أملَ له فيهما.

لا يمكـن لنـا، بغير حُبٍّ حـارقٍ أو عشـقٍ خارق، أن نلمس أسرار هذا الكون الغامض المحيّر.

لا يصحُّ في الحب عتابٌ ولا لـومٌ، لأن كل حبٍّ هو مـن طرفٍ واحدٍ في الحقيقة، وقد يقابله حبٌّ أو قبول أو نفور، وقد لا يُقابل بشيء. فكيف يصحُّ اللومُ والعتاب.

تُخشى شراسةُ الأنثى، إذا تعرّض وليدها للخطر.. وإذا عشقتْ بعمق.

في زمن الابتداء وأحوال البدايات، لا يحتاج المحبُّ إلى خارطةٍ تدلُّه على الطريق. فإن ظنَّ يومًا أنه اقترب من النهايات، راح يحنُّ مُجدّدًا إلى زمن البدايات.. ولذلك قيل: الأمرُ دائريٌّ يعود إلى ما منه بدأ، ويتّصل بما به ابتدأ.

لا يخلـو الحـبُّ من حيرة، وقد تشـوبُ نقـاءه غيرة، وربمـا بات المحـبُّ وهو حانـق على محبوبـه. وتلك، كلهـا، أحـكامُ البدايات التـى قـد يُحلِّقُ فوقهـا الحبُّ، ويعلو. إن اندفقَ ماؤه السماوي، وشقَّ نهرُه مجراه.

فـى الحـب، رجفـةُ الرغبـة التـى تُـورث الخمـود والخمول.. وفى العشق، رعشةُ النشوة التى تُهيج اشتياق النشوى و النشوان.

العشقُ يقلبُ موازين القلبِ والعقل، جميعها، ويجعلُ اليسيرَ خطيرًا والجليلَ هيّنًا. فتصيرُ الكلمةُ بركاناً قد يثور بغتة. والعبارة المفردةُ أُفقًا لا آخر له. والرسالةُ القصيرةُ إصبعَ ديناميت قد يُميت.

لا يصحّ أن يُؤاخذ، الذي اخترقه السهمُ النافذ..
وكيف تصحُّ مؤاخذةُ مأخوذٍ، يظن نفسه الآخذ.

الحبُّ، بدءُ السعي نحو المحبوب، والعشقُ مُنتهاه. وليس لهذا المُنتهى، مُنتهي.

إن صحَّ الحبُّ، احتوى الأحوالَ كلَّها: التحنان والفوران.. الروحانية والنزق.. الصفو، وصراخ الروح طلبًا للمحبوب.

حين يحتدمُ الحبُّ، تثورُ النفسُ أحيانًا لحفظ ذاتها من الذوبان في المطلوب. فإن دام هذا الثورانُ، تبخّرَ الحبُّ وصار كهباءٍ أو ذكرى. لأنه لا حُبَّ مع حضور الذات، لا حُبَّ إلا بغيابٍ تامٍّ في المحبوب.

لا نجاةَ من موجات الحبِّ الهادرة، ومن دوّاماته، إلا بالاستسلام التام للغرق.

فى مُفتتح الحبِّ قلقٌ يدلُّ عليه الأرق، ثم توقٌ يسوقُ المحبَّ إلى الطلب، ثم حذرٌ من الإبحار المشوب بخطر الغرق. فإن استقامَ الحالُ ودامَ حينًا من الدهر، فالمحبُّ والمحبوبُ في سكينةِ الطمأنينة. وفي هدأةِ الرضا. وفي نعمة الإحساس بأن العالمَ آمنٌ.

العشقُ يقلبُ قياس المسافات.. يلتصقُ المحبوبُ فيُريده المُحبُّ أقرب، ويبتعدُ عنه فيشعرُ بأنه قريب. وهذا عجيب.

بحضورِ الحبِّ فينا تُستجمعُ القُوى فنتوهّجُ، وتندفقُ فينا الحيويةُ العلويةُ. فإن فارقناه أو انتزع منا، نتشظّى، ثم نخبو كشمعةٍ ذابت حتى آخر اللهب الأخير.

المحبـوبُ ندعـو له حينًـا، وحينًا عليه. وسـواء كان الدعاء له أو عليه، فما دُمنا ندعو فنحنُ نُحبُّ.

بالحبِّ يختـرق الخيـالُ الخلاّقُ الحُجُـبَ، فيُحضر المحبـوب الغائب، ويُخلي الكون مما سـواه. وإذا ازداد الشـغفُ وطمح المحب إلى أمرٍ مستحيلٍ، فبهذا الخيال يلتقيه، أو بالأحلام الأوفر يقينًا من الواقع وما فيه.

فـي فوات لحظات الحبِّ وانسـرابها مـن بين أصابع الزمان، حسـرةٌ، وخسـارةٌ لا يعوّضها شيء. لأن اللحظة النادرة تقول وهي تُفقد: استعادتي مستحيلة.

إذا كانت الأشياء تُعرفُ، وتُعرّفُ، بنقيضها. فالحبُّ، هـو نقيضُ النزعـة الهمجيـة، الكامنـة في قـاع المنطقة المُعتمة من النفس البشرية.. وهو طوقُ النجاة منها.

الخجلُ قد يخفي الحبَّ إلى حين. وحين يزول، يكون الحبُّ قد بلغ المدى الأقصى الذي لا يصح معه الخجل.

الحبُّ ظاهره السلام وباطنُه الاستسلام، وهو انتصارٌ من دون حربٍ، وتحليقٌ بغير أجنحةٍ، ومنحٌ بلا احتراس.. وما سوى ذلك ليس حبًّا.

الحبُّ وهجٌ يضيء دروب الحياة، فإن فُقد أظلمتْ.

من أشكال العشق، وإشكالاته، نوعٌ نستجلبه بفتح نوافذ القلب، ونوعٌ يصدُمنا في الحنايا ونحن في غمرة الغياب، فنستفيق.. ونوعٌ نستعيده في خواطرنا من بعد الحرمان، عسى حياتنا مُتقصّفة الأوقاتِ تصير محتملة.

إذا اتّهمتَ الحبيبَ في قلبك، فلا تصحبه بعدها.

إذا لم تجد ذاتك مُنعكسةً على مرآة المحبوب، فهو ليس المحبوب.

أجنحـةُ الحـبِّ لا حصر لهـا. منها الـلا وافعي، اللا مُنتهي، واللا مُرتوي، واللامُهتمّ بغير المحبوب.. الحبُّ يستدعي اللاءات كلها، وأدوات النفي.

الحبُّ لا يعرف ندم، ولا يخلو من الألم.

أن تُحبَّ شـخصًا يعنـي.. أن تُكـذّبَ كُلَّ المُحيطين بكَ، وتُصـمَّ أُذنك عن كلّ مَن كنتَ تُنصـتُ إليهم دومًا، وتُخالـفَ كلَّ ما كنت تعتقد. ليكون المحبوبُ وحده هو المُعتَقَـد، والمُصدَّق، والمُسـتَمع إليـه. وتلك مخاطرةٌ، ومغامرة غير مأمونة العواقب.

الحبُّ فيه تحليقٌ ونُبل. وليس فيه حقوقٌ أو واجبات، صوابٌ أو خطأ، إيمانٌ أو كُفر.

للعاشـق عينان لا تريـان القبح فـي المحبوب، ثم لا تريـان قبحًا في أي موجود، ثـم لا تريان في الكون قبحًا. فإذا اكتمل العشـقُ في القلب، وعمّ، وتـمّ، وطمّ. فما ثمّ إلا جمالٌ، يحوطه الجمال.

تبـدو المحبوبةُ في عيـن المُحبّ، على صـورة الربة إسّت (إيزيس) فإن أحبّته هي، بدا لها كوليدها.

بالحبِّ يحيا الإنسـانُ إنسـانيته، ويتحقّـق بها. وإلا، فالقاتـلُ لا يقتـلُ وهو يُحبُّ. والمخـرّب لا يُخرّبُ وهو يُحبُّ. والخائنُ لا يخونُ وهو يُحبُّ.. فالحبُّ لا يجتمع مع وضاعةٍ، أو رداءة، أو همجية.

فـي حياتنا لحظاتٌ سـحريةٌ تحوطُ بنـا وتصحبنا كلَّ حين، فأحيانًا لا ندركها فنكون كالأحياء الميّتين، وأحيانًا نُحبُّ فندركها.

يقولُ العاشقُ، وهو الصادقُ: كلُّ ما كان من قبلك وما سـيأتي من بَعدكِ، فهو لكِ. فتقولُ العاشـقةُ: باطني لكَ، إن أردتَ السَّكن، وطن.

لأن الحبَّ روحُ الحضارات وسرُّها المستتر، فلن يعرفه من البشر ولن يترقّبه إلا راقٍ. أما مُنكره فهو المنكورُ، الممكورُ به، المدحورُ في غياهب الجاهلية الأولى.

فى الحب رهبانيةٌ، وفى العشق العنفوان.

سـألت: لماذا، حين يخرج القلبُ من حبّ، ينوي ألا يحبَّ مجـددًا؟ فأجبتُ: من شـدة الألم.. لكـن الحنين إلى تلك البهجة العلوية، سـوف يُعـاوده من بعد، فيعيده مجدداً إلى أحوال المحبين.

فى الحب رقّة، وفى العشق رِق.

لأن الأجسـام هينةٌ مثـل معظم المحسوسـات، فمن الممكن امتلاكُها بورقةٍ ذات صفةٍ شـرعية، أو بصفقة قد تكون قليلة المقـدار، أو بقوةٍ مُغتصبة.. أما الأرواح فهي الغاليةُ التي لا يمكن الاستيلاء عليها، إلا بالحبِّ.

الحبُّ أُرجوحةُ القلوبِ البريئةِ، البريئةُ.

لا يكتملُ العشقُ في القلب حتى يقع الوصالُ، فيصيحُ المحبُّ في كهفه الجُوّاني بلسان الدهشة، قائلًا: يا إلهي، هل في الحياة روعةٌ كهذه..

الحبُّ رحمةٌ. لولاها، لأكلت القسوةُ قلوب الناس أجمعين.

الحبُّ يتسلح بالمسامحة حين يقع الاختلاف، وبالغفران عند وقوع الخطأ، وبالحكمة إذا اهتاج الجنون.

في الكون ألغازٌ لا حصر لها، من أكثرها غموضًا وسحريةً، الإنسان. ولا مفتاح لحلّ هذا اللغز الساحر، الغامض، إلا الحب.

أحيانًا يحتار المحبُ في أحواله، حتى تحتدم حيرتُه، ثم يُدرك في لحظة إشـراقٍ قلبيٍّ أن يقين الحبِّ، يأتى مع الاحتراق به.

النـاسُ قـد تُسـمي الاحتياج حُبًـا، كيلا ينكشـف ما ينطوي عليه الاحتياج من احتقارٍ ذاتيّ.

فـي انتظار لقـاء المحبوب يذوب الوقـت، ثم يجمد فيكـون كتلـةً من جليـدٍ لا يريـد أن يذوب، ثم تتكاسـل عقاربُ السـاعات وتُبطئ العـدادات وتخمد الجارياتُ، فلا يبقى شـيءٌ متسـارعٌ إلا وجيبُ القلب بقلق العشـق، وبأمنياته.. فإن سـمح الزمانُ وسـنح اللقاءُ، انقلبت دولةُ الأحـوال فجأةً إلـى النقيض، فيتطاير الزمـنُ الهانئ كأنه دخانٌ تتطير به رياح الوصال.

قـال: الحُـبُ وَهْمٌ نـاره تلتهـب! قالـت: ولكنها نارٌ سـاطعةٌ، نرى على ضوء لهيبهـا أنَّ ما يُحيط بحياتنا، وأن حياتنا ذاتها، هي أوهامٌ تهيمُ في أوهام.

قال: أحبك لأنك جميلة! قالت: ليس للحبِّ أسبابٌ ملموسـة، ولا تصحُّ معه الشروط.. ومن يهتم بالقشر لن ينال اللب، ولن يحظى بالحب.

قـال: أهديكِ قلبي وكلّ جوارحـي! قالت: أتُهدي ما ليس لك!

المحـبُّ مع النـوال، يرضـى، ويرضى، ثـم يرضى. فـإن اسـتدام حـال حرمانه وجـفّ نهـرُ النوال واسـتمر تصحّر القلب، نقم المحبُّ وتذمّر ثم ثار. فينهار السـتارُ، والجدارُ، والاعتبار. وهنا يكون الاختبار.

كلما امتلأت الأنحاءُ من حولنا بالمقت الكريه، وكثُرت الحقارة والتجارة والدعارة. مسّت الناس الحاجةُ المُلحّةُ إلى الحبِّ، ليعتدل ميزان الإنسانية.

ما القلبُ بغير عشقٍ، إلا مضخّةٌ مملّة للدم الفاتر. وما الروحُ بلا حبٍّ، إلا شبحٌ باهتٌ مدفونٌ في بدن. وما الإنسانُ من دون الوجدان، إلا أحطُّ الحيوان.

قال: كيـف يكـون الوضوءُ لصـلاة العشـق؟ قالت: بالدم، أو بماء التعامى عن رؤية ما سواى.

قال: كيف الطريقُ إليكِ؟ قالت: اتركِ نفسك وتعالَ.

الحبُّ في الحياة، علامة عليها.

الكراهيـةُ، الطريـقُ الأسـهلُ لأصحـاب النفـوس السقيمة، لأن الحبَّ يحتاجُ نفسًا عظيمة.

للـروح أحـكامٌ أدقُّ من أحكام البـدن، وأرهفُ، ولا فهم لها إلا بالحب.

وجودُنا من دون عشقٍ عظيمٍ جمودٌ، وسُدى، وسرابٌ يحسـبه الميّتون حياةً، وما هو بحيـاة.. فأحِبُّوا، أو كونوا من أخسأ الخاسرين.

النـاسُ تجاه الحـبِّ، على ثلاثة أصنـاف لا رابع لها.
فهم إمـا غرقى في محيطاته اللامتناهية، أو متحرّقون إليه ومتحسّـرون علـى انقضاء أوقاتهم سُـدى مـن دونه، أو جُهّالٌ لم يتعلّموا فنّ الإحسـاس بأسـرار الحياة والبهجة السحرية المواسية لسرعة انقضائها.

إذا عجز الحبُّ عن اقتلاع جذور المشاعر الرديئة، كالرغبة في الاستحواذ، واهتياج الغيرة، والتلذُّذ بالتسويف. فهو بلاءٌ قاتمٌ، جاثمٌ على قلب المحبِّ وروح المحبوب.

الحبُّ ارتقاء الأرواح إلى سِدَرِ المنتهى.

سيبقى الحبُّ، دومًا، هو العزاءُ الوحيدُ للوحيدين.

لا يعترفُ بقوة الحبِّ إلا ذاك الذي ذاقه، ولا يترقّى في السموات العُلا غيرُ هذا الذي عانى احتراقه، وباختراقه للحُجُبِ أدرك، حقًّا وصِدقًا، أن الناس.. إما مُحبُّون، أو محرومون.

مهمـا اجتهد المُحبُّ، ومهما ظنَّ أنه بقوة الحبِّ قادرٌ على فعل المستحيل. فسوف يبقى عاجزًا عن أمورٍ كثيرة، أوّلُها كتمـانُ حاله.. وانعدام مقدرتـه على حجب فيض الوله، البادي في نظرة عينيه.

لـولا الحـبُّ وأوهامُه اللذيـذة، لحَـارتِ الأفهامُ في صحراء الحقيقة الجرداء.

لولا الأحلامُ، ولو مستحيلة، لجفّت أرواحُنا وصارت كالدخان من شـدّة الاحتراق.. ولا شيء يحرّك الأحلام، مثل الحب.

لـولا الخيـال، لعـاد البشـرُ إلـى سُـكنى الكهوف..
ولولاه، ما أحبَّ محبٌّ.

إدراكُ الجمال والشـغفُ به، ليس فقط صفةٌ إنسانية،
بل هو أيضًا شرطٌ للإنسانية.. لا يتحقق إلا بالحب.

سألتني: هل يمكن أن يعيش بعض الناس دون حب؟ فأجبتها: في تواريخ الناس وحواضرهم، شواهدُ تدل على أن معظمَ البشر عاشوا كالموتى وماتوا دون أن يحيوا.

الحبُّ إعصارٌ كامنٌ في زاوية بعيدةٍ بأعماق القلب يتوق لاجتياح ما يعترض طريقه.

حيـن نـرى الاسـتثناء قاعـدةً، والمحظـور مطلوبًا، والمحـدود فسـيحًا. فنحـن نحـبُّ. وإذا عـاد المعتادُ، وسـاد السـأمُ، وضاقت أمامنا الأرضُ بما رحُبت. فنحن من الحب محرومـون، وبالأحرى، نحـن الموتى الذين يتحرّكون.

مُحال، أن تُحيط الأفهام بأسرار الحب عند الحمام.

مـا القلبُ بـلا عشـق، إلا مضغةٌ لـدمٍ باردٍ يُخشـى تجمُّـده. وما الروحُ مـن غير المحبة، إلا شَـبحٌ هائمٌ في صحراء الوحدة الطاحنة.

الإشـارةُ الدالـةُ على ابتداء اندفاق سـيول المحبة في القلـب، من قبل أن يشـقَّ نهرُ العشـق مجـراه، هي تلك اللمعة التى تشـعُّ في العينين. فيبدو معهـا الكونُ، فجأة، أجمل مما كان.

الحبُّ إعصارٌ لا حصار له، ولا سيطرة عليه، وقدرٌ لا فكاك منه أو مهرب. فهو إن أُحيط بأطرافه العليا وسُدّت السُّبل، سكن وكمن وامتدت في الباطن جذوره. وإن اتّسع المدى أمام بذوره وأشجاره وأزهاره، أورقت وأينعت وتنوّعت الألوان واستعلنت البهجة السماوية.. الحبُّ كالمشكلة التي لا حلّ لها، أو هو بالأحرى الحلُّ الذي لا مشكلة معه.

السمواتُ التي تُحلّق فيها أرواحُ المحبين، حَرَمٌ. وليس بالإمكان بلوغها إلا بالعشق. ولائمو العُشّاق ومُنكرو أحوالهم، على نحوٍ ما، معذورون. فإنهم لو ذاقوا رحيق المحبة وحلّقوا في سماواتها، لاستقاموا.. وما مالوا.. ولا لاموا.

لـو كان الحبُّ خطيةً لكانت البشـرية قـد تابت عنه، وأقلـع عن أرضـه العشّـاقُ والمحبـون. ولـو كان ماديًا لاشـتراه الأغنياءُ بالغالى، وحُرم الفُقـراء منه لغلو ثمنه. ولو كان مسـتحيلًا، لما ملأ أنحاء الأرض في كل زمان.. فالحبُّ، منحة سـماويةٌ مُتاحة لكل ذي قلب. وهذا معنى الآية الإنجيلية «شمسُ الله تُشرقُ على الأبرار والأشرار» وأختها القرآنيـة «كُلًا نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاءُ ربك محظورًا».

الحبُّ ضوءٌ يكشفُ لنا أسرار الحُسن في المحبوب، ونـورٌ نـرى بـه ذواتنا فـي عتمة الظُّلـم والإظـلام، ونارٌ نسـتدفئ بها من بـرد الوحدة الطاحنة. وهو شـهادةٌ على إنسـانية الإنسـان. والذيـن جعلوا للحـبّ عيداً سـنويًا، مساكين. أو هم فاقدوه المتشوّقون إليه. أما المحبُّون حقاً وصدقاً، فهم يعرفون أن أيامهم على مدار العام، أعياد.

الشجرةُ لا تُورق ولا تُثمر إلا بحبّ غارسها وراعيها، ولا تتفحّم إلا بنار الغِلِّ الهائجِ في نفوس كارهيها.. والبشرُ، كالشجر.

بعبارة أخرى: الحبُّ للحياة شرطٌ لازمٌ، لو انعدم لانعدمت.. فالشجرُ يُورق ويثمرُ بقوة الحب، والزهرُ ينفتح على سماواته بفعل الحب، والقلبُ يشرق عليه الكون فيُبدع حين يحب. وبالعكس مما سبق، تسبق الكراهيةُ كل تحطيمٍ وإحراقٍ وتدميرٍ وإفناء.

حين يكثرُ في الطرقات الدمُ السيّالُ، فهذا دليلٌ على انفجار حمم الكراهية في النفوس، واهتياج النار في بحارنا.. ولا نجاة من ذلك إلا بالرجوع بالحب إلى سموات الإنسانية، المنسية.

العبرةُ في الحبِّ بالمحبِّ لا المحبوب، إذ هو الذي يصبو.. ويعلو.. ويلامس السماء باشتياقه.. ويترقى في مقامات القرب.. ويدركُ لذة الوصال ويعاينُ رجفة النوال، النادرة.

المحبوبُ الـذي خَـانَ، هَـانَ. وأما المحـبُّ الذي استكان تحت سلطان عشقه، فصار لا يرى غير محبوبه. فهو الذي فاز، وامتاز.

حين يصحُّ الحبُّ، لا نـرى إلا المحبوب.. وتبدو لنا بقيـة الخلائق كالخيال، أو الظـل، أو الأوهام الهائمة في الهواء.

للفـراق أوانٌ رحيـم، يكـون عـادةً بعـد الارتـواء أو الامتلاء. فإن وقع الافتراق قبل الأوان، كان حارقًا.. ولا رحمة فيه.

الحـبُّ لا يعتدُّ بالحـدود، ولا بالمسـافات الفاصلة. لأنه بطبائعه المحلِّقة في أعالي السـماوات، متجاوزٌ كل حَدٍّ، ومُستخفٌّ بأيِّ مسافة.

حيـن يحوطنـا الحـبُّ، نُبحـر فـي لحظاته الآسـرة الموهمة بالسرمدية، كأن الأمد سوف يمتدُّ بنا إلى الأبد. ثم نستفيقُ، فنفزعُ، فنستميتُ لإبقاء اللحظة المنسربة من بين أصابعنا، فنبقى على أمل المعاودة، فيطحنُنا الحنينُ، فنحبُّ من جديدٍ. أو نموت ونحن الأحياء.

لكلِّ شيء مقدارٌ واجبٌ وحدٌّ معلوم، إن تعداهُ انقلب بعده إلى ضدِّه. إلا شيئان، كلما تزايدا تأكّدا وطلبا المزيد: النارُ، والعشقُ.. وبينهما بالطبع صلةٌ وارتباط.

لا يتمُّ الإيمانُ بالمحبوب، إلا بالكُفر بما سواه.

العشـقُ مهما كان طفيفًا أو فادحًـا، فلا علاج له، ولا حيلـة تنفع معـه. إلا اسـتكمال السـير في سـبيله، حتى المنتهـى! منتهـى الوصـول، أو انقطـاع المقطـوع عـن الوصال.

العـذابُ في العشـق، مشـتقٌ مـن العذوبة. فـإذا نظر العاشـق لمعشـوقه بعين القلـب، رأى الجنـون تعقُّلًا.. والضياع اهتداءً.. والعذاب عذبًا.

عنـد احتدام الحُـبِّ في القلـب نفقدُ النطـق، فنقولُ كل شـيء. نغمـضُ العين، فنرى بعيـن القلب المحبوب المحتجـب وراء الجدران.. وندركُ، بـل نوقنُ، من دون عقلٍ يتدبّر.

حتـى فى هجير الحرمان، لا تخلو صحراوات الحب القاحلة، من واحات.

قد يشوب العشق القلقُ، وقد يخالطه الشعورُ بالخطر. وقـد يهدّده الحاقـدون. ومع ذلك، فـإن طغيانه واهتياج أمواجـه جـارفٌ لا يعرف التـردُّد. لأن طغيـان وهيجان العشق، واندفاعه، لا يعتد بسلطانٍ آخر.

الحبُّ سماويٌّ، بطبعه، لأنه يعلو بالمحبوب عن حيّزه الأرضيّ فيصل به إلى أسمى مدى.. أما العشقُ، فهو طريقٌ أرضيٌّ يُوصل بالغوص فيه إلى أعلى علّيين.

مَنْ لم يحتمل أحوال الحبِّ، فلا قِبَلَ له باحتمال مقامات العشق.

ما أحبَّ محبٌّ إلا سعى؛ بأفعاله، أو بهمَّته، أو بأمانيه، أو باعترافه بالعجز عن الصعود للأعالي التي ارتفع إليها المحبوبُ.

مفرداتُ المحبة لا تُحدث أثرها بخاصيةٍ فيها، وإنما بصدق الناطق بها.. وبالتطابق بين أقواله وأفعاله.

الحبُّ لمحةٌ سحرية، لا سيطرة معها على وهجٍ أو افتياج.

حاولوا تعريف الحبِّ فاجتهدوا في حال الاستفاقة، وتقوَّلوا، وزخرفوا العبارات مرارًا. ولما أحبّوا، خرسوا. وكذلك كان حال الذين سعوا لتعريف العشق.

المحبُّ زاعمٌ مُـدَّعٍ، يتعيَّن عليه الإثبـات. بالبيِّنة، أو بالمسكنة. بالسكينة التامة، أو بالاهتياج الأهوج. باليمين الصادقـة، أو بصـدق الحال. بالميل مع الهـوى، أو بهذا الاسـتغناء عن السـوى.. برهـانُ الحبِّ له ألـف طريق، وليس للاستدلال عليه شكلٌ بعينه.

جوهرُ الحبِّ واحدٌ، أما وُجوهُه وتجلياتُه القوس قزحية فهي متعدّدةٌ بحسب تفاوت الأزمنة والأمكنة ومُرام الكلام. فقد يبوح المحبُّ للمحبوب بأحواله قائلًا: يا قاتلي، وقد يعبِّر عن الحال ذاته بقوله له: يا حياتي. فالمهمُّ، هو فحوى الكلام لا شكله، ولهذا قال البُلغاء العرفاء: لما امتدت الرؤية ضاقت عن الوصف العبارة.

قد يُهدي المحبُّ لمحبوبه زهرةً، تصلُ بها الرسـالة.
وقد تصل بإهدائه قصرًا أو قصيدة، أرضًا أو أفقًا سماويًا، قنطارًا من ذهبٍ أو نظرة هُيامٍ تُغني المنظور إليه عن النظر إلى غير الناظر.

فـي العشـق.. صلصلـةُ جَـرَس، واسـتخفافُ بـكل الحَرَس، وعنفوانُ الحِصان مع الفَرَس.

في الحبِّ تحدٍّ للحدود، وتجاوزٌ لقدرة الإنسان المحدود، وحربٌ لا يُشعر بها من بعيد. فمن انتصر فيها فقد نال مآله وزاد قَدْر ذاته وذاق رحيق الحياة وأحسَّ ببرد النار، ومن هُزم انكسر وانهار.

في العشق، كلّ الأحوال أهوال.

للحبِّ فنونٌ تستهين بالقانون، المقيِّد، وتستدعي ما قاله واحدٌ من السبعة الحكماء: القوانين كخيوط العنكبوت تعوق الهوام وتسمح بمرور كل الكيانات الكبار.. المحبّون المحظوظون كياناتٌ كبار.

ظُلم الحبِّ أوفر من إنصافه، بكثير..

الحبُّ مُخاطرة، والعشـقُ مُقامرة.. والخاسرُ فى هذه المُغامرة وتلك، رابح.

فـي ذُرى الحبِّ رغبةٌ في الفناء، واشـتهاءٌ للتلاشـي. وهذا سـرُّ قولهم منذ الأزمنة القديمة، بلسان المحبوب: اجعلنـي وحـدي كخاتمٍ علـى قلبـك، لأن المحبّة قوية كالموت.

الذيـن ذاقوا، قالـوا: الحبُّ مِلحُ الحيـاة. . والوصالُ العشقيُّ هو الشهدُ المصفّى.

المحبُّ قد يصبر بالمحبوب، ومع المحبوب، وللمحبوب.. لكنه أبدًا لا يصبر عن المحبوب.

لولا المحبة والعشق، لاستحال تحقيق المعنى الكامن خلف اكتمال الجانبين اللذين منهما جوهر الإنسان، وهذا سرُّ قولهم قديمًا: ما أَنَّث المؤنَّث هو الذي ذكَّر المذكَّر.

فـي الحبِّ نبصرُ خلاف ما تراه العين، لأننا ننظر بعين القلب، فندركُ ما لا يراه الناظرون.

مهمـا أطال النظر، فلـن يرى المحبُّ فـي المحبوب قُبحًـا، أو نقصًـا، أو تضاؤل مقدار.. فإن بـدا له من ذلك شيء، فهو من جملة العَوَام لا خواص الناس.

أطباؤنا القدماء قالوا، وعلى رأسهم الشيخ الرئيس، إن العشق حالةٌ وسواسيةٌ مسيطرة واختلالٌ نفسي خطير.. ولما مَسَّهم سرُّ الجمال، أحبّوا.

كلّ حبٍّ مسَّه الحسُّ، فهو عشق.. فإن وأده الحرمانُ كان الخسران وبؤس المصير، وإن صادفه الوصالُ أوصل إلى الفردوس الأعلى.

مصر القديمة قدّمت نصوص الحبّ الأولى.. والاعتقاد بالخلود، ووجود الضمير، ووجوب تقديس الأنوثة المؤلّهة، وارتقاء الروح إلى قمة الهرم.. يعني، قدّمت باقة الزهر المتكاملة، كاملة.

ألف ألف عام عاشها البشر، وما كان في حيواتهم معنى يترك الأثـر. فلما اهتدت أخيرًا البشـرية للكنز المخبوء، وعرفت الحبَّ، بدأت الحضارةُ وصار للإنسـان تاريخ. وسقط الزمنُ الأجوفُ المسمى ما قبل التاريخ.

العشّاقُ، في كل موضعٍ أو مكان، مُلّاكه وملوكه.

للحبِّ أحـوالٌ، كالحـزن الشـفيف والفـرح الغامر والقلق المؤرِّق والثقة. وللعشق أهوال.

الغريـزةُ اضطرار، والحـبُّ انبهار، والعشـقُ أصوبُ اختيار.

الحبُّ، طفوليٌّ.. فضّاحٌ.

لا حدَّ للحبِّ، ولا مدى.. وفي العشـق، لا شـبع ولا ارتواء إلا كلمحٍ بالبصر.

لا وجع للعشّاق يقارب آلام الفصم والانفصال.

الحبُّ جريانُ نهرٍ، والعشق اهتياجُ بحر. والغرقُ هو السبيل الوحيد، فمن رام طوق نجاةٍ فهو التعيس، المسلوب، البائس.

القائلون بالحبِّ الأول، والأخير، مخرِّفون يهرفون. فالحبُّ لا أول له ولا آخر، وكل حبٍّ هو الأول والآخر.

قلبُ الإنسـان، وبعـض أنواع الحيوان، لـه حالتان لا ثالث لهما: حُبٌّ حالٍ، جُبٌّ خالٍ.

المحبوبُ سماءٌ لا انتهاءَ لعلوِّها، وهو عينُ ماءٍ رقراقٍ لا قرارَ لقاعها، وهو الشـجرةُ الوارفة، والـروحُ العارفة، ولمحةُ العين الكاشفة.

المحبوبُ، باختصار، هو سر امتزاج الجمال بالجلال بالكمال.

الحبُّ حينٌ نـادرٌ، وفيه مغالاةٌ.. ولهذا، فهو غالٍ مثل كل نادر، ولا ثمن له إلا في وهم الخاسرين.

اختتام

سيبقى الإنسانُ.. وسيبقى القانون.. وسيبقى الفن..
وسيبقى الحب.(*)

(*) كتبتُ هذه العبارة في يوم من أشد أيام المصريين، والعرب، اسوداداً..
لأن الغلّ والغضب، كانا قد انفجرا في الطرقات.